

الشيخ عبدالرحمن الوكيل

ومنهجه العلمي في الكتابة عن التصوف (1)



الشيخ فتحي أمين عثمان

الشيخ عبدالرحمن الوكيل ومنهجه العلمي في الكتابة عن التصوف (1)

الشيخ فتحي أمين عثمان

إنه لما يوجب الحمد والثناء والشكر لله أن قيض للإسلام، عالما فاضلاً، وباحثاً كبيراً، ومفكراً عظيماً هو الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمة الله عليه – فقد كان من المفكرين القلائل، والعلماء القلة الأفاضل الذين أحاطوا إحاطة تكاد تكون تامة بكثير من النحل الباطلة، والفرق الغالية المبتدعة والضالة، وممن فهموا فهماً صحيحاً مراد كاتبيها، وكشفوا ضلالهم وفندوا أساليبهم، ودحضوا حجتهم، وردوا كيدهم إلى نحورهم.

كما كان – رحمه الله – صاحب باع كبير في الاطلاع على مكنونات كتبهم، وخفي رسائلهم، عارفاً لأسرار صنعتهم كاشفاً لخبيث طويتهم ملماً بهوية فكرهم.

♦ كذلك كان خبيراً بطرائقهم، فاستطاع بفضل الله – أن يجلِّي خبايا كتاباتهم، وأن يرد فكرهم إلى مصادره وأن ينبه ويحذر من غدرهم، وأن يفضح قبيح فعالهم ومنكر أعمالهم، وشنيع صنيعهم، كل ذلك في منهج علمي صحيح واستقصاء للحقائق سليم، وأمانة علمية فائقة، وإحاطة كاملة، ناهيك عن بيان قوي وحجة دامغة، وأسلوب رصين يتناسب مع الموضوع الذي يكتب فيه ويظهر ذلك كأحسن ما يكون في كتاباته عن الصوفية، والبهائية والقاديانية، وكذا كتابه «دعوة الحق.«

منهجه في التحقيق:

كان صاحب منهج في التحقيق يتسم بالأمانة العلمية والتخريج الصحيح، والتعليقات الهادفة، وخير دليل على صحة ذلك القول، تحقيقه لكتاب مصرع التصوف، للإمام البقاعي.

إذ جاءت تحقيقاته تحقيقات شيخ متمكن من صنعته – كما دلت تعليقاته على هوامش الكتاب وشرحه لمراميه وأغراضه دليلاً بيّناً على سعة الاطلاع وغزارة المعرفة ودرايته بصحة النص من عدمه.

فمثلاً عند ما روى البقاعي عن القشيري نصاً بشأن ما حل بالحلاج لم يفت الشيخ الوكيل أن يذكر النص الصحيح قائلاً:

»نص ما ذكره القشيري»: ومن المشهور أن عمرو بن عثمان المالكي رأى الحسين بن منصور الحلاج يكتب شيئاً، فقال: ما هذا؟

فقال: هو ذا أعراض القرآن، فدعا عليه، وهجره، قال الشيوخ: إن ما حل به بعد طول المدة كان لدعاء ذلك الشيخ عليه.

ومن الأمثلة التي تدل على توافر الأمانة والدقة في التحقيق لدى الشيخ الوكيل، أنه عندما أورد الإمام البقاعي في كتابه مصرع التصوف، ما ذكره الإمام أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي في تفسيره لقول الله تبارك وتعالى:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: 17]

»ومن بعض اعتقاد النصارى استنبط من أقر بالإسلام ظاهراً، وانتمى إلى الصوفية حلول الله في الصور الجميلة، ومن ذهب من ملاحدتهم إلى القول بالاتحاد والوحدة كالحلاج، والشعوذي، وابن حلي، وابن عربي المقيم بدمشق، وابن الفارض وأتباع هؤلاء كابن سبعين، وعد جماعة .

وهنا يستدرك الشيخ الوكيل فيقول:

هم كما جاء في «البحر :«والتستري تلميذه وابن مطرف المقيم بمرسيه والصفار المقتول بغرناطة، وابن اللباج وأبو الحسن المقيم «بلورقه»، ومن رأيناه يرمي بهذا المذهب الملعون: العفيف التلمساني، وله في ذلك أشعار كثيرة، وابن عياش المالقي الأسود الأقطع المقيم كان بدمشق، وعبدالواحد بن المؤخر المقيم كان بصعيد مصر، والأيكي العمي الذي كان تولى المشيخة بخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة من ديار مصر. وأبو يعقوب بن مبشر تلميذ التستري المقيم كان بحارة زويله» ا.هـ تفسير البحر .

وزاد في تفسير الفهد:«والشريف عبدالعزيز المتوفي، وتلميذه عبدالغفار القوصي".

وهذا مما يدل على دقته في التحقيق وسعة اطلاعه على كثير من مصادر المعرفة.

منهجه في الكتابة:

1- يتسم بالإنصاف:

لقد كانت كتابات الشيخ الوكيل عن الصوفية في غاية الإنصاف، فقد كان – رحمه الله – ونحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً – أكثر إنصافاً من أولئك الذين يتعصبون عن جهل، أو يهاجمون عن تعصب. وفي هذا يوضح منهجه في الكتابة عن الصوفية فيقول:

"سنجيب عن سؤال هو: ما صلة الإسلام بالتصوف؟"

وحسب القارئ إنصافاً في العرض، وإيثاراً للعدل الكريم أننا سنبسط أراء التصوف نفسه كما بينها شيوخه الكبار، وكما دافعوا عنها، تاركين للقارئ الحكم – وحسبه أن يقارن بين أصول الإسلام التي يعيها كل مسلم، وبين أراء التصوف على أننا سنعين القارئ أحياناً بتذكيره بأدلة هذه الأصول من آيات القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الصحيحة.

ولكـي يتحقـق لـه ذلـك المـنهج الـذي اختطـه نجـده عنـدما يـتكلم عـن كلمـة صـوفية يسـوق أقـوال كبـار الصـوفية حـول معـنى هـذه الكلمـة، ثم يختمهـا بقـول القشـيري «ولـيس يشـهد لهـذا الاسـم – صـوفي– مـن حيث اللغة قياس ولا اشتقاق والأظهر فيه أنه كاللقب.«

وعنـدما تحـدث عـن وسـيلة المعرفـة عنـد الصـوفية وأنها تقـوم علـى الـذوق والكشـف، دون العقـل والشـرع، سـاق في هـذا المجـال بعضـاً مـن التعريفـات الـتي اصـطلح عليهـا كبـار شـيوخ الصـوفية، كالقصـيري، وابـن عربي في تعريف الذوق.

فالقصيري يعرف الذوق بقوله:

»مـا يجـده العـارف علـى سـبيل الوجـدان والكشـف لا البرهـان والكسـب، ولا عـن طريـق الأخـذ بالإيمـان والتقليـد، وهـو أول درجـات شـهود الحـق بالحـق. في أثنـاء البـوارق المتتاليـة عنـد أدنى لبـث مـن التجلـي البرقي.«

كما يذكر عن ابن عربي قوله:

»اعلـم أن العلـوم الذوقيـة الحاصـلة لأهـل الله، مختلفـة باخـتلاف القـوى الحاصـلة مـع كونهـا ترجـع إلى عـين واحدة.«

ومن معالم منهجه رحمه الله أنه:

عنـدما يـتكلم عـن العشـق عنـد الصـوفية، لا يكتفـي بمـا ذكـره بـل يقـوم بتحليـل مـنطقهم والـرد عليـه. فنجـده يقـول: «لا يجـوز مطلقـاً تسـمية حـب الله لعبـده «بالعشـق» ولا تسـميه حـب العبـد لربـه» وذلـك لأمرين:

أولهما :أنه لم يرد هذا الإطلاق لا في الكتاب ولا في السنة.

والآخر :لما يكتنفه من نقص وخسة.

وبعـد ذلـك يسـوق الـدليل علـى صـحة رأيـه. بمـا ذكـره القشـيري عـن صـوفي كبـير هـو أبـو علـي الـدقاق. عندما تكلم عن العشق فقال:

»لا يوصـف الحـق سـبحانه بأنـه يُعْشَـق» لأن العشـق يعـني تجـاوز الحـد في المحبـة. ويكفـي للدلالـة علـى جهـد الشـيخ المبـذول في هـذا المجـال أنـك إن تقـرأ تعريفاتـه وتعليقاتـه علـى مـا يجـيء مـن كـلام الصـوفية عـن الـذوق – والكشـف – والعشـق والهويَّـة، والإِنِّيـة – والغُنُوصِـية.. مـن خـلال كتـاب «هـذه هـي الصـوفية» أو «مصرع التصوف» أو «دعوة الحق.«

وكذلك مقالاته في مجلة الهدي النبوي.

تعرف قدر الجهد الذي بذله في التعريف بهذه المضامين الباطلة...

♦ومـن ذلـك يتبـين لنـا أن منهجـه كـان يقـوم علـى ذكـر الشـاهد علـى مـا يقـول مـن كـلام وكتـب أئمـة التصوف بعد أن يقول عن بعضهم إنه من قدامى الصوفية أو من الموسومين بالاعتدال.

2- من ركائز المنهج في الكتابة عن التصوف عند الشيخ عبدالرحمن الوكيل والتي تدل على الأمانة العلمية – أنه كان يشرح كلام كبار الصوفية من واقع أقوال مفسريهم الذين قاموا بتفسير كلام شيوخهم، ثم يُثَنِّي عليه بالرد والتعليق حتى يبعد عن نفسه شبهة التحامل، ومن ذلك أنه عندما تعرض بالنقد لبعض أوراد الصوفية. نجده يذكر ما شرح به النابلسي قول «ابن مشيش». «وانشلني من أوحال التوحيد واغمسني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع إلا بها.«..

وذلك لأن النابلسي صوفي كبير له احترامه ومكانته عند الصوفية، وحتى لا يتهمه أحد بالتحامل والتحيز.

♦وتأكيداً لهذا المعنى فإنك تجده كثيراً ما يناشد القارئ، إن مسه فيما يقول عن الصوفية وهم أو ريبة إلا ما قرأ من كتبهم شيئاً مثل «الإنسان» للجيلي، و«تائية» ابن الفارض، و«الطبقات والجواهر» للشعراني، و«الإبريز» للدباغ و«الجواهر والرماح» للتيجاني، و«قوت القلوب المستطاب» لحسن رضوان.

♦وهو يقر بأنه لا يداهن في الحق، فنراه يقول:

»قد يعيب علينا البعض ممن سحرتهم طقوس الصوفية وشاعريتها الكهنوتية، قد يعيبون علينا العنف في المحاجة، لكننا نقول لهؤلاء: رويدكم إنما نسمي الأشياء بأسمائها ونصفها بصفاتها.«.. ..

3- ومـن أبـرز سمـات مـنهج الشـيخ في الكتابـة، أنـه كـان يحـرص دائمـاً علـى أن يـذكر في مقابـل أقـوال شـيوخ الصـوفية وأفعـالهم، مـا يدحضـه ويبطلـه مـن كـلام الله تعـالى وحـديث رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم ومـن أمثلـة ذلـك أنـه عنـدما تكلـم عـن التصـوف العملـي، ودعوتـه إلى الزهـد والعزوبـة ولبـاس الخرقـة، نجـده يقـول: فمـن ألـبس أبـو بكـر وعمـر وغيرهمـا الخرقـة؟ وفي أي كتاب أو سنة نجد ذلك؟

♦وعنـدما يتعـرض لمـا تقولـه الصـوفية، في ضـرورة أن يكـن لكـل مريـد شـيخ، وأن المريـد لا يصـح لـه أن يذكر الله إلا بالورد الذي خصصه له شيخه.

♦وعنـدما يجـد ابـن عطـاء السـكندري، قـد زعـم أن كـل اسـم مـن أسمـاء الله يناسـب نوعـاً معينـاً مـن النـاس، ويخصـص لكـل اسـم «كـاللطيف، والمتـين.. ..» نوعـاً مـن النـاس يـذكرون بـه ولا يصـلح لسواهم.. يتساءل الشيخ الوكيل في حيرة قائلاً:

فكيف يكون ذلك والله يقول :﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾]الأعراف: 180.[

♦وبعـدما خلـص إلى أن ذكـر الصـوفية بدعـة يهوديـة، ذكـر في مقابـل ذلـك كيـف كـان يـذكر رسـول الله صلى الله عليه وسلم ربه، فماذا بعد الحق إلا الضلال....؟

♦وخلاصـة القـول أن مـن أهـم ركـائز الفكـر، عنـد الشـيخ عبـدالرحمن الوكيـل، أنـه كـان يـرى أن التصـوف النظـري والتصـوف العملـي، شـيء واحـد «فالنظريـة وليـدة التطبيـق، والتطبيـق وليـد النظريـة،

فقد كان لا يرى فرقاً بين التصوف القديم والتصوف الحديث، فهما في نظره متساويان في المنهج والتفكير. والتطبيق والهدف ولذلك يتساءل، وهل القتل على طريقة ابن عطاء السكندري، غير القتل على طريقة الحلاج.«

4- وكنت تجده في كتاباته إذا أراد أن يعلق، أو يشرح، أو يفند قولاً لأحد كبار الصوفية، يعرض أولاً منهج الرجل العام، ثم يعلق أو يشرح قول الرجل على ضوء ذلك المنهج، ومصداق ذلك أنه عندما قام يشرح ورد ابن عربي مثلاً، نراه بعد أن ساق ورد ابن عربي علق بقوله:

»ولكي تعي ما يريده ابن عربي نذكر رأيه في الوجود أو في الله سبحانه..

يرى ابن عربي أن الله كان وجوداً مطلقاً لا يتميز باسم ولا بصفة.«..

5- ولا يعيب الشيخ في منهجه أنه كان يذكر بعضاً من الشواهد على صحة رأيه.. من أقوال المستشرقين، فمن ذلك ما ذكره على لسان جولد زيهر فيما يتعلق ينقده لفكرة العزلة والعزوبة وأثرها السيئ على حياة المسلمين، وكذا ما قاله غيره عن عبادة الموتى..

ونهاية القول:

فالشيخ – رحمة الله عليه – لم تُغْرِهِ لذَات، ولم يثنه الحرص على الذات. من أن يرفع – بعد أن كان طرقياً – راية الحق في وجه كل مكايد.

فوجه رسالة إلى شيخ مشايخ الطرق الصوفية في زمنه، وطبع كتاباً تحت اسم «صوفيات»، وكان بداية لكتابه «هذه هي الصوفية» والذي تحدث فيه عن موقفه من التصوف فقال:

»سنظل – بعون الله – نلهب بساط الحق ظهور الآبقين ونهدم بمعاولـه – غير هيابة ولا داهنة – معابد الأصنام حتى تخر على سدنتها وعبيدها، ولن يحول بيننا – بتوفيق الله – وبين التذكير بما هدى الله إليه، وفرض علينا الجلاد المستلئم دونه، عواصف شر تثيرها علينا أحقاد الصوفية المستعرة، فما لقلب المؤمن أن يرهب في الحق إلا من فطره، ولا يرغب إلا في رضاه ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾]التوبة: 129.[

♦ولقد وفَّى الشيخ الوكيل – رحمه الله – بذلك فقد ظل سنين عديدة منذ أن كتب هذا الكتاب «هذه هي الصوفية» في 11 ربيع الآخرة 1375هـ حتى أواخر عهده بالدنيا يكتب عن الصوفية والبهائية والقاديانية، سواء كان ذلك كتباً أو مقالات في مجلة الهدي النبوي، والتي كانت تصدرها جماعة أنصار السنة المحمدية حينذاك، وذلك بعد أن تولى رياسة تحريرها خلفاً لسلفه الفقير إلى عفو الله – كما كان يحب أن يكتب – فضيلة الشيخ محمد حامد الفقي – [1]رحمة الله عليه – مؤسس جماعة أنصار السنة المحمدية.

♦لعل البعض الآن إذا قرأ ما كتبه الشيخ الوكيل عن بعض الفرق المبتدعة، ظن أن مثل هذا الأمر كان سهلاً وميسوراً، ولم يدر بخلده أن صاحبه حين كتب ذلك، كان قد ركب يومئذ لجة ما لها من قرار، وخاض بحراً ما له من سواحل، ولكي نعرف شجاعة الموقف، علينا أن ننظر متى كتب هذا الكلام وكيف كان الجو الفكري المحيط بالناس ذلك الوقت، من سدنة قبور، إلى شيوخ للطرق لا همَّ لهم إلا المغانم التي يجرها عليهم الاتجار بالدين، يحيط بهم ويلتف حولهم آلاف من الأتباع الجاهلين

بحقائق الدين، فضلاً عن حقائق المعرفة ممن يصدق عليهم قول الله تبارك وتعالى:﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِالله إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾]يوسف: 106.[

وإذا كانت الكلمة عندما تقال في زمن معين تعد تعبيراً عن شجاعة القَلَم وعن صدق صاحبه، فإنه أيضاً قد تكون لو قيلت في بيئة معينة تعتبر قمة الشجاعة للقلم ولصاحبه، خاصة حين تتعرض بالهدم والتعرية لما يعتبره البعض من المسلَّمات والموروثات التي نشأ عليها الآباء والأجداد، وتربى عليها الأحفاد، وتأصلت في عقول لا تريد أن تستنير وعيون لا تريد أن تبصر، وآذان لا تريد أن تسمع، وقلوب لا تريد أن تفقه.

وفي الختام ندعو الله تبارك وتعالى أن يجعل الشيخ عبدالرحمن الوكيل مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وأن يجعل عملنا هذا متقبلاً خالصاً لوجهه الكريم والله من وراء القصد، ومنه الهداية وبه التوفيق، وصلى الله وسلم وبارك على عبده الكريم ورسوله الأمين صلاة وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين.

فائدة:

أخي أستسمحك عذراً إن وجدتني قد أكثرت من النقل من كتابات الشيخ عبدالرحمن الوكيل – رحمه الله – مما قد يعتبر عيباً في منهج الباحثين، إلا أن عذري في ذلك أنني أحببت بعد معايشتي لفكره أن يكون ذلك الفكر هو ما نقدمه للقراء، حتى يتبين عمق فكره، وتبرز قيمة المنهاج الذي اختطه لنفسه واختاره في الكتابة: هو كتاباته ذاتها.

ولعله بتوفيق الله وفضله بعد أن يتم لكثيرين من القراء معرفة كتب الشيخ وكتاباته أن يكون لي معه ومع فضيلة الشيخ أبي الوفاء درويش – رحمهما الله – وقفة أخرى أبرز فيها منهاجهما وفكرهما وكتاباتهما عن الصوفية فكراً وسلوكاً.[2]

والله المستعان، ومنه الهداية وبه التوفيق.

---

[1]انظر مجلة التوحيد باب إعلام الدعوة عدد (3) لسنة 1416هـ، وعدد (5) لسنة 1422هـ:«أنصار السنة وستون عاماً من الصحافة الإسلامية.«

[2]انظر مجلة التوحيد عدد (6) و(12) لسنة 1416هـ، باب أعلام الدعوة.